

إفلاس

كان « محسن العتر » ملقى على فراشه فى حجرته الخربة
يعانى تباريح الإفلاس والعسر .

لقد أقفر جيبه إلا من قروش عشرين ، هى الصفوة
المتخلفة من الجنيهات العشرة التى يتقاضاها من عمله الحكومى فى
خاتمة كل شهر .

كان ممدوداً على سريريه فى خمول ، يتجرع على مضض
كأس السأم ، إذ حبس نفسه فى ذلك القمقم المعتم ، موفراً
على جيبه نفقات لهوه التى تمتص القدر الأوفر من دخله الضئيل .
إن الليالى كانت تمر عليه وكأنها قرون طوال ، بل كأنها
كابوس جاثم يتمثل فيه حطام حياته الخاوية .

وتقلب على الفراش يشعل لفافة تبغ ، وما لبث أن انسرح
يعب أنفاسها ملياً ، يجاهد يائساً أن يعيد السكينة إلى نفسه الحائرة .
ولما لم يفلح ، صدف عن مضجعه يذرع حجرته فى خطأ
متخلعة ، كارهاً أن يكون ذلك القمقم العفن مجاله الأوحـد

الذى يستنـ إليه ويتنفس فيه أنفاس الحياة .
 إنه يختنق . . . وإنه ليحس روحه تحتدم بين جنبيه ،
 وتحته على توثب وانطلاق فى رحاب من اللهو عراض .
 فوق مقدوره أن يحجب عن أنظاره بعد الساعة ما فى الدنيا
 الواسعة من مباحج وألطف .

وتفلتت منه نظرة إلى الحارة وهو عن كذب من النافذة
 فألفاها تمور بالحركة وتمرح فى الأضواء .
 وما عثم أن تراءت له فى أقصى الحارة قهوة « السرور
 والأمل » أكثر ما تكون إغراء ، فقد تدلى من جنبها مصباح
 نفط يتوهج ، وقد أخذ فى زهو يبعثر بسماته المشرقة يمنة ويسرة
 كلما هزته خطرات النسيم .

ولم تكن أذناه بأدنى حظاً من ناظريه ، فقد ترسلت
 عليهما أنغام شجية ، من مذياع القهوة ، فحركت فى نفسه
 كوامن المشاعر ، فانبعث ينقر حافة النافذة بأصابعه لاهياً
 يسائر الإيقاع .

ومثل العتر يتمطى باسطاً أوصاله الحاملة ، وقد فرطت
 منه ثناؤبة عميقة كأنما تزيح عنه التبلد والجمود .

ماذا يضيره إن انغمس فى غمار هذا النشاط البهيج ؟

قدح القهوة لن يبتز من جيبه إلا قرشاً ، وإن تمادى في عبثه فقرش آخر يؤديه لقاء لعبة النرد .

ومن يدري ؟ ربما يعلو حظه فيربح من المراهنة عوض ما يدفع في القهوة شهراً أو يزيد .

وما هي إلا أن زایل قمقمه وخرج إلى الشارع يلتقي بالحياة فتترنح أعطافه ترنح الرضا والاستبشار .

وكلما نشطت خطاه تدانيه من القهوة توضح له عامرة الأرجاء يسودها نشاط متجدد .

أين هي من حجرته المتفردة وقد لفظها البيت على سطحه نائياً بها عن أطايب العيش .

القهوة ولا جدل هيئة المنظر ، شرقة الجدران بأبنجة لفائف التبغ والراجيل تتعقد في سمائها كغمامات زرقاء .

وهي فوق هذا مجتمع أسقاط الحارة من الشبان المتسكعين يختلفون إليها ما غابت الشمس وسجا الليل ، لا مشغلة لهم إلا المشاكسة والشجار ، وقد تتعالى أصواتهم جهورية الجرس لا تحسن إلا التفوه بالمتهافت من القول والتافه من الحديث .

ما كان « لمحسن العتر » أن يلجأ إلى مثل هذا المنتدى الرخيص لو أن جيبه المفلس عامر بجنيتها العشرة .

أما يكفيه الليلة أن يأنس بذلك المذيع وهو يغرد تغريده
المأنوس والسمار من حوله يرددون الآهات كلما هب عليهم نغم
حنون .

أما يكفيه منظر خادم القهوة وهو يخب في أطماره البالية
ينحوض طريقه بين المناضد ، يجب هذا إلى مطلبه وينحني على
ذلك يسأله ما يطلب ، وإذا ما رفع عقيرته بالطلبات ، مطط
حروف كلماته في ترنيم يلذ للأسماع .

أما تكفيه هيئة المعلم «سرور» صاحب القهوة وهو مستديك
على مقعده كالصقر المجنح يتابع غلامه في بالغ من الحرص
محصياً عليه الحركة ، وقد استوت أمامه النارجيلة تتوهج على
رأسها الأغبر قطع الجمر كلما جذب إلى صدره منها نفساً ،
وكرشه المنتفخة ترنح على فيخذه في بدانة وترهل .

كل ما في القهوة يدخل عليه الرضا والسرور .

وجلس « العتر » يشغل نفسه بجريدة مسائية أهملها أحد
السمار بعد أن اشتف منها عصارة الأخبار ، فآلى بها حيث
هى على المنضدة ورحل .

وتناولها صاحبنا يقلب صفحاتها ملولاً ، وعيناه تتواثبان
على عناوينها البارزة دون أن يشغل باله بنجاي السطور ، حتى

تعثرت آخر المطاف بعنوان ضخم لقصة أثارت فضواه ، وألحبت فيه حماسة القراءة ، إذ كان ممن يستهويهم الأدب وخاصة القصصى منه ، وفوق ذلك فصاحب القصة علم من أعلامها ، وخدين له ، درسا فى مدرسة مشتركة وهما فى ميعة الشباب .

لقد حمل كل من الزميلين لصاحبه ذكريات مشحونة بحقد وبغضاء ، لما نبت بينهما من تنافس على قلب امرأة : فتاة من فتيات الليل لا ضمير لها ولا قلب ، تهب حبها عطية ميسورة لمن يغدق عليها المال فى سماحة وسخاء .

ظفر بها العتر على منافسه الأديب .

لم تكن الحيلة تعوزه .

إن أباه من هواة التحف الأصلاء ، له منها مجموعة فريدة تتناقل حديثها المحافل والمجتمعات .

وامتدت يد « العتر » تعبت بها ، فكان ينفق على غانيته ندى الكف بما يتوفر له من مال أبيه الميسر .

ولما افتضح أمره طرده أبوه من المنزل يمسك عنه ويضن عليه ، فتقطعت به سبل العيش ، وتنكرت له الغانية ، وناصبته العدااء .

وها هو ذا يصبح تافه الشأن مطمور السيرة يتكسب فى غير يسر .

ونشط « محسن العتر » يقرأ الصحيفة وعلى فمه تتموج بسمه شاحبة تنم عن حفيظة وغيظ . إن القصة تفيض بالأحداث المثيرة والمواقف العنيفة في أسلوب شائق ، وحبكة فنية وخيال خصب ، وسمو من تفكير .

وصفق « العتر » يطلب قدح قهوة ثم أشعل لفافة تبغ ، واسترخى في جلسته يتابع المطالعة .

وألقى « العتر » نفسه وسط زوبعة عارمة ، فريسة لغضب جامع ، وثورة عمياء .

تبين له أن صديقه الأديب قد عرج على الماضي يستخرج الحوادث السوالف من لفائفها ينمق بها قصته .

لقد أطلق اسمه على الشخصية الأولى كاملاً دون تبديل أو تعديل ، ووصفها بكل مرذول من النعوت ، فهي دنيئة المنبت ، خبيثة المقصد ، منطوية على شر .

وتحمل « العتر » في جلسته بعض على نواجذه .

كيف يزج باسمه في قصة محورها الأول والأخير جريمة غش وخداع وتزوير ؟

هل ابتغى صديقه الأديب أن ينتقم منه معيداً إلى الحياة ما أسدلت عليه أستار النسيان ؟

كرامته أهدرت لا ريب . . . أهدرت على نحو مبتذل
لا يرتضيه حر .

لا أقل من أن يثور لشرفه المسفوح ، وكرامته الجريح .
وطوى الجريدة يدسها في جيبه وفي نفسه عزم على قصاص .
ولعت في رأسه فكرة .

عليه بصديقه القزم « سعدون » وكيل المحامى . . . لا مرية
أنه واجد عنده السلاح القاتل الذى يبحث عنه .
عليه به دون إبطاء ، وإن كانت الصلة بينهما قد انقطعت
منذ وقت سلف ، إثر شجار هب بينهما ، كالإعصار الجارف ،
وهما يلعبان الورق ذات ليلة .

لقد تبين لـ « سعدون » أن صديقه « العتر » يخفى في كنه
بعض الورق ، فإن خذله الحظ ولاحت الحساسة والهزيمة ،
استجدى كنه يطلب منه العون والتعويض .

تبين لـ « سعدون » أن صديقه مخادع محتال . . . لص غشاش .
لم يمالك « سعدون » فنعت « العتر » بالمخادعة واللصوصية
على مرأى ومسمع من الأَشهاد في صوت جهير كأنه هزيم الرعود .
وزجره « العتر » فلم يمتثل بل تهادى يلعن ويسب في جرأة
وحماس .

وتظاهر «العترة» بالثورة دفاعاً عن شرفه ، وسرعان ما
نشبت بينهما شجار .

وشيع «العترة» القهوة في تلك الليلة المشثومة متورم
الأنف ، تظل إحدى عينيه غمامة زرقاء .

صدف «العترة» عن قهوة «السروور والأمل» تهديه قدماءه
إلى حارة متربة غير ممهودة بحى القلعة ، وصعدت به أربع
طبقات إلى حجرة تشبه الجحرم منزل متوحد يشرف على
خرائب ثلاث .

ومد ساعده إلى الباب ينقر عليه فى رفق ، ولما لم يُجب
إلى ندائه احتدّ فى طرقه حتى وضح له من خلف الباب
الزجاجى شبح «سعدون» قادماً مترنح الخطو : عود متقاصر ،
وظهر مقوس يحمل بين كتفيه حذبة كأنها سنام بعير ، وقد
أمسك «ساهرة» عكرة الضوء، فيها شمعة ترنح ذبالتها من ضعف.
وانفرج الباب .

وتواجه الصديقان .

فعجل «سعدون» إلى مصراع الباب يوصده ، لولا أن مد
«العترة» قدمه يحول بين «سعدون» وما يريد .

وزأر القزم فى توقع يقول :

ماذا تبغى . . . ليس لك مكان هنا . . . انصرف . . .
ما بيننا انتهى . . . قطع إلى الأبد .

ولاح « للعتر » أن صديقه القزم مخمور تتلاعب برأسه
الصهباء ، فاستبشر خيراً ، وواجهه في مسكنه يقول :

— ألا تمد يد العون إلى صديق مأزوم . . . في حاجة إليك ؟

— لا يهمنى . . . ليس ثمة صداقة تربط بيننا .

— ألا تغفر له إساءته لك .

— لست الله لأغفر الذنب .

— وإن أذاك تائباً يطلب عندك العفو والصفح .

— الله وحده صاحب العفو .

— ألا تتذكر العيش والملح الذى تقاسمناه وأكلناه معاً ..

— أتذكر أنك خدلتنى . . . خدعتنى . . . غررت بى . . .

سلبت مالى . . . كفانى هذا القدر .

وترنح « سعدون » فى وقفته وأوشك أن يتهاوى ، فخف

« العتر » إليه يسنده ، وتناول منه « الساهرة » كيلا تندلق فتندلع
منها النار . . .

لم يكن بالحجرة أثاث إلا متكأ من الخشب هزيل ، ومقعد

تفسخت قوائمه وانتفشت حواشيه ، فاتخذ « العتر » لنفسه

مقاماً ، مخلصاً المتكأ لصديقه القزم .

ولما استوى « سعدون » فى مكانه ، واطمأن فى جلسته ، انبعث يبحث عن زجاجة الخمر ، وأقامها إلى فمه يعب منها ثم قدمها إلى صديقه « العتر » الذى كرع منها كرعة مديدة ، فلما أحس بوقدة الشراب تسرى فى أوصاله ، أرجعها إلى صديقه القزم .

ولما ألفاها « سعدون » فارغة شهرها فى وجه صديقه وهو يجمع فى صوته الخمر :

سوف أحطمها على رأسك وأنتهى منك . . . ما الذى ساقك إلى هنا تعكر صفو أنسى . . . هيا ، عليك بالباب .

وغمغم « العتر » فى انكسار :

أهكذا يستقبل الصديق ؟! . . .

— دعنى لزجاجتى هذه . . . كلانا صديق للآخر . . .

هيا . . . ارحل ؛ عجل وإلا هشمته على رأسك .

لم ينبس « العتر » ، وقصد النافذة يفتح وصاوصها ، فغزا الحجرة نسيم تشيع فيه أنفاس المساء ، ثم قفل إلى صديقه يبسط الجريدة بين يديه ويلوك تلك الكلمات بين شذقيه :

هذه هى التى دفعتنى إليك . . . ثمة ثأر يؤخذ وشرف

يرد . . . مسألة قانونية أود رأيك فيها .

ظل « سعدون » صامتاً كأنه يشحذ ذهنه مستوحياً الفكر .
كان رجلاً كريم الخلق ، صاحب مروءة وفضل ، إن هو
استشير في أمر نسي حقه وشمر عن ساعديه يسدى النصيح .
كيف يبخل برأى على مأزوم ويأبى الدفاع عن مهزوم ؟
أليس المحامي في ساحة العدل جندياً وهب نفسه ووقف
علمه دفاعاً عن حق مهضوم .

وما « سعدون » القزم إلا ذلك الجندى الذى يساند العدالة
ويساعد القانون وينصر الحق .
وبعد لآى انعطف على صديقه « العتر » يربت يده
ويسر إليه قوله :

ما الوقائع . . . على بها . . . اقتضب في السرد . . .
كن واضحاً . . . أبرز موضوعك دون إسراف في قول . . .
الاقتضاب خير دليل على الصدق .

وأذعن « العتر » لما أمر به ، وتناول قصته في إيجاز ،
و« سعدون » يسمع إليه بملء أذنيه .

فلما تزود بما أراد صدرت منه إشارة إلى صديقه يسكته .
وغاب صوت « العتر » وهو يردد قوله :

أكفأك ما سمعت ؟

— أو تحسبني غيباً لا أعي . . . حسبي منك إشارة أو تلميح كي ألمّ في غمضة عين بخبيثة الأمر .

— ألسن على حق . . . طمئني حماك الله .

— التشهير واضح . . . سوء النية متوفر . . . خصمك

في قبضتنا . . . دعواك حتماً رابحة . . . غداً أكتب عريضة الدعوى . . . وبعد غد أتقدم بها إلى القاضي أثار لك وأقتص . . . سأنتزع منه الحكم الذي ترضاه في الجلسة الأولى ولا ريب . . . عول على . . . « سعدون » يعرف من أين تؤكل الكتف .

وهتف « العتر » وقد لعبت برأسه الخمر :

نعم المدافع أنت !

واعتدل « سعدون » يجيب صديقه مغمغماً :

لى شرط .

— شرطك مقبول على العين والرأس .

— ماذا يكون نصيبي ؟

— ماذا تعنى ؟

— الأتعاب !

— لك ما شئت . . .

— التعويض . . . نتقاسمه !

— اتفقنا .

— سجل ما قلت .

وسجل « العتر » ما أملاه القزم عليه في ورقة بالية قدمها له « سعدون » وبعد أن مهرها بإمضائه دسها « سعدون » في جيبه ؛ ثم انعطف الصديقان يتدارسان خطط الهجوم ويقرران تفاصيل المعركة ، وكلما شدد « سعدون » هجومه يكشف مواقع الضعف من خصمه انسرح « العتر » في تفكير يحصى الغنم ويعد أوراق النقد وكأنها نجوم لوامع تهبط من السماء تغرقه في بحبوحة من العيش .

وسرعان ما نال الجهد من الصديقين فانكفأ كل على صاحبه ، وما لبث أن تعالى في الحجرة غطيط على حين لاحت تباشير الفجر في الأفق تؤذن بموالم يوم جديد ، وقد ارتسمت على قسما وجههما ابتسامة بلهاء تنبئ بما يتخايل في رأسيهما من أفكار ثراء عريض .